مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، م (٣٣)، ع (5)، ص ص: 446 – 473، (٢٠٢٥م)
DOI: 10.4197/Art.33-5.15

تجليات الطفولة وبلاغة الغياب في شعر إبراهيم الكوفحي

عبّاس عبدالحليم عبّاس[1]

عاصم محمد ثلجي الحنيطي[2]

[1] أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، الجامعة العربية المفتوحة، عمّان

[2] محاضر متفرغ، قسم العلوم الأساسية، كلية عجلون الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية، المملكة الأردنية الهاشمية

المستخلص: تسعى هذه الدراسة إلى البحث في ذات الشاعر وعودته إلى الطفولة تلك المرحلة العمرية، التي يعدها الشاعر زمناً جميلاً، أو شقاوة ممتعة، بل نظرة فلسفية عميقة، وردّة فعل على ما وصل إليه الإنسان من مراحل متقدمة في السن، أسرف معها في مشاعر الجدية وتحمّل المسؤولية والعطاء، وفناء الذات في الآخر أو الآخرين؛ الأهل والأسرة، العمل والمجتمع، بحيث صارت العودة إلى تلك الطفولة أشبه بميكانزم دفاعي تجاه هذا كله.

وستتبع هذه الدراسة المنهجين الوصفي والتحليلي في تناول الموضوع من حيث استقراء المادة من مصادرها ورصدها، فيعالج البحث مادته من خلال هذه المحاور: تجلّيات الطفولة، وبلاغة الغياب.

الكلمات المفتاحية: تجليات الطفولة، الغياب، بلاغة الغياب، إبراهيم الكوفحي، ميكانزم دفاعي.

توطئة:

تجدر بنا الإشارة، ونحن بصدد الحديث عن نداء الطفولة في شعر إبراهيم الكوفحي إلى عنايته في فترة متأخرة من عطائه الشعري والأدبي بأدب الأطفال ونقده، فقد نشر مجموعته الشعرية للأطفال بعنوان "تحت شجرة التوت، مجموعة شعرية للأطفال، سلسلة كتب الأطفال 25، وزارة الثقافة، عمّان 2008م"، وبحوث أخرى في الإطار نفسه، كما يجد من يطالع صفحات ديوانه (الأعمال الشعرية، دار الإسراء للنشر والتوزيع، عمّان، 2019م) مواضع عديدة يقف الشاعر في كل منها عند معنى من معاني الطفولة، وأحد أوجهها وتجلياتها، وجاءت هذه الدراسة للكشف عن هذه التجليات، سواء في طفولة الشاعر نفسه، أو طفولة بعض أهله وأبنائه، وتبحث الدراسة أيضًا في ارتباط الطفولة عنده بالمكان والزمان والحنين إليهما، فضلًا عما تعنيه

هذه الطفولة من معان أخرى سيعرض لها البحث في مواضعها، وقد تناول البحث أيضا مجموعة من (الظواهر الفنية) في شعر الكوفحي، وعرض لها بالنقد والتحليل.

- إبراهيم الكوفحي الشاعر، نبذة موجزة

ورد في الموقع الرسمي لإبراهيم محمد الكوفحي بأنه: شاعر وناقد وأكاديمي أردني، ولد في مدينة إربد الواقعة شماليّ المملكة الأردنية الهاشمية، عام 1967م، وتلقى تعليم ماقبل الجامعة في مدارسها، ثم حصل على شهادة (البكالوريوس) في جامعة اليرموك عام 1989م في تخصص اللغة العربية وآدابها، وفي عام 1992م نال درجة (الماجستير) في اللغة العربية وآدابها في تخصص الأدب والنقد، عن رسالته المنشورة تحت عنوان(مصطفى صادق الرافعي: الناقد والموقف)، ثم التحق بآداب الجامعة الأردنية في العاصمة عمّان ليحصل فيها على درجة الدكتوراة في الأدب والنقد عام 1998م عن أطروحته المنشورة بعنوان: محمود محمد شاكر، سيرته الأدبية، ومنهجه النقدي.

عمل في التدريس في جامعات عدة أردنية وخليجية، وهو الآن أستاذ الأدب العربيّ الحديث ونقده في قسم اللغة العربية وآدابها في الجامعة الأردنية بعمّان.

بدأ كتابة الشعر وهو شابّ يافع، منذ ثمانينات القرن الماضي، ولاتزال قريحته معطاءة في هذا الفنّ حتى يومنا هذا، ويجد القارئ نتاجه الشعري في مجلدٍ واحد تحت عنوان (الأعمال الشعرية-2019م)، وله العديد من الإصدارات الأدبية والنقدية، عدا أطروحتي الماجستير والدكتوراة، على سبيل المثال:

- شعر عبد المنعم الرفاعي(جمع وتحقيق)، الشركة الجديدة للطباعة والتجليد، عمّان، 2003م.

- مرايا وظلال: قراءات ومراجعات نقدية، منشورات وزارة الثقافة،عمّان، 2005م.

- خواطر الرافعي في تفسير القرآن وإعجازه، (جمع وتحقيق)، الشركة الجديدة للطباعة والتجليد، عمّان، 2006م.

- محنة المبدع: دراسات في صياغة اللغة الشعرية، منشورات أمانة عمّان الكبرى، 2006م.

- شعر محمد جمال عمرو للأطفال: محاور المضمون وظواهر التشكيل الفني، دار المأمون للنشروالتوزيع، 2013م.

- أدب الطفل والناشئة: قراءة في نماذج من القصة والرواية، دار الخليج للنشر والتوزيع، 2020م.

- تحدّي الإعاقة الجسدية في نماذج من قصص الأطفال، 2021م.

– قراءات نقدية في أدب الطفل والناشئة، 2024م.

مقدمـــة:

لقد مثلت العودة إلى الطفولة، أو كما أسمّيتها في هذه الدراسة(الطفولة النائية) ظاهرة متواترة في شعرنا العربي الحديث، بل صار الموضوع مثار بحوث ودراسات نقدية، فلهذه الظاهرة فروع وتشعبات، وهو ما دفع الأدباء والنقاد إلى العناية بها. والشاعر إبراهيم الكوفحي، وإن لم يكن قد خصص قصائد قائمة بذاتها لهذه (الطفولة النائية) إلا أنه لم يستطع تخلصًا منها أو فكاكًا، وقد وردت في الأعمال الكاملة بمواضع عدة، أشير إليها هنا بعجالة على النحو الآتي[1]:

قصيدة: وحدي مع الحزن

قصيدة: منبع الأحلام (ص116–117).

قصيدة:عيدنا في(إربد) (ص118–121).

قصيدة: وشوشات (إربدية) (ص122–124).

قصيدة: وقفة على الأطلال (ص125–126).

قصيدة: براءَة (ص130–131).

قصيدة: رؤى (ص132–133).

قصيدة: وصايا إلى ولدي (ليث) (ص134–135).

قصيدة: بلغت (الأربعين) (ص 137–138).

قصيدة: البيت قبلك (ص256).

قصيدة: لن أستريح (ص262).

قصيدة: وداعية (ص299–301).

قصيدة: سلام على(إربد) (ص309–310).

قصيدة: مع الشاعر(علاء العرموطي) (ص324–325).

([1]) الكوفحي، إبراهيم، 2019، الأعمال الشعرية، ط1، الأردن، عمّان، دار الإسراء للنشر والتوزيع.

قصيدة: من أجل ماذا. (ص363-365).

قصيدة: في الحمّة الأردنية (ص427-428).

قصيدة: وادي الغفر (ص429-432).

مجموعة للأطفال: (تحت شجره التوت) (ص475 وما بعد).

وقبل المضيّ مع ما ورد في المواضع السابقة من تأملات شعرية لموضوع الطفولة وتجلياته عند إبراهيم الكوفحي، لا بدَّ من مهاد نظري يشمل موضوعين ذَوَيْ علاقة، وهما:

- الطفولة في الشعر العربي(نظرة عامة).
- شعر إبراهيم الكوفحي: دراسات سابقة.

- الطفولة في الشعر العربي، نظرة عامة:

أقصد في هذه النظرة الإشارة إلى نماذج من دراسات نقدية تناولت نظرة الأدباء أو الشعراء إلى طفولتهم، أو إلى الطفولة بوجه عام، وقد اطّلع الباحث على مجموعة من الدراسات في هذا السياق، أتحدث فيما يأتي عن أبرزها:

1- الشعر وذاكرة الطفولة: دراسة في شعر محمد لافي[2]. يتناول فيه تجربة الشاعر الأردني محمد لافي من خلال أثر الطفولة في شعره، حيث مهد لموضوعه بحديث عن آراء فرويد وتحليله النفسي لمسألة العودة إلى الطفولة عند الأدباء، فهذه العودة أمر كامن في اللاوعي الفردي، ومخزون في ذاكرة الإنسان طويلة المدى، وقد درس الناقد تجربة محمد لافي الشعرية في سياق الحنين إلى الطفولة عبر أعماله الشعرية المتمثلة بدواوينه (كهف الرقيم) و(مواويل على دروب الغربة) و(نقوش الولد الضال). ويرى طارق مكاوي في نقده للكاتب الرواشدة أنَّ إشارة المؤلف لقصيدة لافي (لم يعد درج العمر أخضر) تحيل إلى "ترقب الشاعر لافي خط القلق والإحباط الذي ألمَّ به ليعبّر عن حالة من انكسار الطموح والعجز عن مواجهة الحياة، فيرتد الشاعر إلى مصدر حمايته القديمة، ويضع ذاكرة للطفولة أمامه كالمتراس الأول فنراه يحتمي بوالده في النص، وذلك بعد فقدانه جميع ميكانزمات دفاعه، التي حملها لمواجهة هذه الحياة الضارية واللإنسانية: أبتي إليك تحيتي

ما أورقت في الشعر قافية

([2]) الرواشدة، سامح،2011، الشعر وذاكرة الطفولة، دراسة في شعر محمد لافي، الأردن، إربد، دار الكتاب الثقافي.

ولا هدل الحمام

ويبدو من خلال النص أنَّ الرجوع إلى الطفولة وطلب الاحتماء يمثل أبرز الدفاعات التي يتسلح بها الشاعر، محاولاً التخلص من الإحباط الذي سكنه، فهو يستشعر اليأس من الحياة مما يدفعه إلى العودة لمكامن (الطفولة)[3].

2- الطفل والطفولة في شعر السياب[4]، وفي هذا البحث يتأمل الباحث صور الطفولة التي كثر تكرارها في بواكير القصائد التي نشرها السياب، وبحث في هذه الصور عن ثيمات مهمة في هذه التجربة الشعرية، كاليتم، والحرمان العاطفي، وفراق الأهل والأسرة، فضلاً عن ثيمات الحنين إلى القرية ومجتمعها، كما رصد الباحث مراحل تطور نظرة الشاعر للطفولة بعد اطلاعه على الثقافة والأدب الغربيين، حيث اختلفت هذه النظرة نتيجة ذلك، وقد أشار الباحث إلى أنَّ دلالة الطفولة في شعر السياب مالت نحو الإيجابية، حتى في تلك الصور التي بدا فيها الطفل مسحوقاً مظلوماً، ومضطهداً محرومًا، وبيّنَ الباحث مدى معرفة السياب بأثر صورة الطفل وتأثيرها في المتلقين، لذا كانت هذه الصورة مرتكزاً أساسيًا من مرتكزات التأثير والتوصيل، ومن شعره في الطفولة:

خيالك من أهلي الأقربين أبَرُّ وإن كـــــــــان لا يعقل

أبي منه قد جرَدتْني النساء وأمي طواها الردي المعجل

ومالي من الدهر إلا رضاك فرحماك فالدهـر لا يعدل

3- الطفولة في ديوان (مراكب ذكرياتي) للشاعر عبد الرحمن صالح العشماوي[5]، تحدث فيه عن صورة الطفولة والأطفال في هذا الديوان، موضحًا كيف يصور الشاعر نفسه كالطفل الذي يرتمي بين أحضان قريته (عراء) كلما عاد إلى أحضانها.

كما بيّن الباحث ذلك الشعور بالطفولة بين يدي الزوجة التي تدلل زوجها كما تدلل الطفل، وقد تتبع الباحث الجانب التراجيدي لدى العشماوي في تناوله لصور الأطفال الذين غدوا الضحايا الأبرز في الحروب

([3]) مكاوي، طارق، الشعر وذاكرة الطفولة: دراسة في قصيدة محمد لافي، جريدة الرأي الأردنية، 2011/2/12.

([4]) رشيد، محمد صالح، 2011، الطفل والطفولة في شعر السيّاب، مجلة أبحاث كلية التربية، ج الموصل، مج11، ع1.

([5]) عرابي، محمد عباس،2023، الطفولة في ديوان (مراكب ذكرياتي) للشاعر عبد الرحمن صالح العشماوي، وهو مقال منشور على موقع الألوكه، 2023/5/28م

والنكبات، وقد استشهد بنماذج شعرية وفيرة تشير إلى الموضوعات والقضايا السابقة التي صور العشماوي من خلالها الطفولة ومشاعره وأحاسيسه تجاهها، ومما ورد في صورة الأطفال ضحايا الحروب والنكبات قوله:

غير أني لم أزل أبصر ليـــــلًا غير ليلي وجراحاً تتلـــــــهّبْ

يعرض التلفاز لي صورة طفل جسمه من شدة الخوف تصلّب

4- صورة الطفولة المغدورة في الشعر المعاصر[6]، يتناول فيه الشاعر الباحث شمس الدين؛ الحديث عن قتل الأطفال، وكيف يمثل قطعاً للطريق على المستقبل، حيث أوضح في هذا المقال كيف اتخذ قتل الأطفال وجوها متباينه عبر الزمن، فقد بدت هذه الجريمة في بعض مناحيها محاولة يائسة لتأبيد الاستبداد، ولمنع التاريخ من التقدم، كما نجد في قصة فرعون الواردة في القرآن الكريم وقيامه بقتل الأطفال الذكور، ويشير محمد علي شمس الدين إلى أنَّ ما يشبه هذا الاتجاه الإجرامي هذه الأيام ما تقوم به قوات الاحتلال الصهيوني المجرمة من مجازر بحق الأطفال والطفولة في غزة بعد أحداث السابع من أكتوبر وقبلها، ويشير الباحث هنا إلى قصيدة له بعنوان (أغنية كي تنام زينب) في رثاء طفلة قضت في واحدة من مجازر اجتياح سابق من قبل الصهاينة لجنوب لبنان،

يقول فيها:

زينب

جرس المدرسة – الخوف

الكتب – الخوف

القلم المكسور الممحاةُ، لماذا؟

من ألبسك الثوب الأسود؟

من قص ضفيرتك الشقراء؟

وقص الشفة المرجانية؟

([6]) شمس الدين، محمد علي، صورة الطفولة المغدورة في الشعر المعاصر، 2023، منشور في موقع صوت الفرح، 2023/11/26م.

https://www.sawtalfarah.com/?p=275462

قومي نلعب قبل رحيل الأشجار

وبالطبع يعرج الكاتب على تجارب متنوعة لصور الطفولة في الشعر المعاصر عند كبار الشعراء مثل نازك الملائكة، والسياب، ومحمود درويش، وأدونيس.

5- صورة الطفل الفنية في الشعر السعودي المعاصر[7]، وهنا تناول القحطاني صورة الطفل من جوانبها الفنية في الشعر السعودي المعاصر، حيث ركز الباحث على أنماط الصورة التي تتمثل في تراسل الحواس الخمسة (البصرية والسمعية،واللمسية، والذوقية، والشمية) كما درس الصور المتحركة والثابتة، محاولًا كشف عمق كل صورة من هذه الصور في دلالاتها التعبيرية والفنية، وكذلك عني هذا البحث بدراسة الأسلوب الشعري الفني الذي اتبعه الشعراء في بناء الصورة من خلال إضفاء صفات مادية ونفسية معنوية عبر أساليب التجسيد، والتشخيص، والتجريد، وذلك من خلال نماذج شعرية سعودية دارت حول الطفل والطفولة في العصر الحديث، ومن الأمثلة التي ساقها الباحث أذكر قول الشاعر عبد الله بن سالم الحميد في ابنته (لمياء):

وابتسام اللؤلؤ البرق الذي أرعدت آفاقه في القلب حية

زينة الدنيا وعمري بهجـــة إن تراءى طيف لمياء البهيــة

ويعلق الباحث هنا بأنَّ الصورة البصرية تظهر من خلال وصف الشاعر ابتسامة ابنته باللؤلؤ والبرق، الذي يلمع نوره في وسط السماء؛ ليحرك مشاعر وأحاسيس الشاعر الفنان، حين يصوره بالرعد الذي يهز القلب، ويهز مشاعر الإنسان، ومما يزيد الصورة جمالاً اعتمادها على البعد التناصي المستند إلى القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[8].

- شعر إبراهيم الكوفحي في دائرة النقد:

لقد لفتت أعمال إبراهيم الكوفحي أنظار الدارسين والباحثين الأكاديميين، والنقاد الذين حركتهم هذه التجربة الشعرية الثرية، في تنوع موضوعاتها، وجاذبية أساليبها وتقنياتها الفنية، وهو من عايش الشعر دارساً ومبدعًا لما يقارب الأربعين عامًا، أسفر عطاؤه الشعري إثر ذلك، عن نشر مجلد ضخم يحوي أعماله الشعرية المنجزة حتى عام 2019م، وقد تناول جانبًا أو غير جانب من هذه التجربة الشعرية عدد من الدارسين، في

(7) القحطاني، حمد فهد،2012، صورة الطفل الفنية في الشعر السعودي المعاصر، حوليات آداب عين شمس، مج40.
(8) سورة الكهف، الآية 46.

أطروحات أو بحوث أو مقالات، ولعلنا نذكر بعض هذه الدراسات بالعجالة الآتية، وهذه المقاربات حسب ترتيبها الزمني كما هو آت:

– ظواهر أسلوبية في شعر إبراهيم الكوفحي، الآء مصطفى محمود دبوس، رسالة ماجستير، جامعة جرش، 2024م.

– الحنين إلى الوطن في شعر إبراهيم الكوفحي، قراءَة أسلوبية، رقية أمين عودة، مجلة أبحاث في العلوم التربوية والإنسانية والآداب واللغات، 2023/12/15م.

– الشاعر الدكتور إبراهيم الكوفحي، ذوّاق للفن والجمال، جريدة الدستور الأردنية، محمد عبد الكريم عزيز، 2023/11/18م.

–الاتجاه الإسلامي في شعر إبراهيم الكوفحي، هديل الحياري، رسالة ماجستير، جامعة جرش، 2023م.

– الشاعر إبراهيم الكوفحي، وجه وفيّ لتقاليد القصيدة العربية، د.سهى نعجة، جريدة الرأي الأردنية 2022/7/15م.

– الأوزان الشعرية وموسيقاها وأثر القافية فيها في شعر الدكتور إبراهيم الكوفحي، شفاء مأمون ياسين، والدكتور هاشم صالح منّاع، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، 2021/1/1م.

_ توظيف الموروث في شعر إبراهيم الكوفحي، سندس فوزي سلمان، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية بكلية التربية للبنات في جامعة بغداد/العراق، 2021م.

– إيقاعات الغربة في قصيدة (وحدي مع الحزن) للشاعر إبراهيم الكوفحي، الدكتور محمد القضاة، جريدة الرأي الأردنية، 2011/10/7م.

وعلى الرغم مما تتضمنه هذه الأعمال النقدية من قيمة موضوعية وفنية في مقاربتها للتجربة الشعرية عند الكوفحي، من قريب أو بعيد إلا أنها لم تُعْنَ بالجانب البحثي الذي تعنى به الدراسة الحالية، وهو (تجليات الطفولة) في شعر إبراهيم الكوفحي، لذا سيتناول البحث الحالي هذه القضية من خلال مجموعة من العناوين الفرعية، كما سيرد في الصفحات الآتية:

– تجليات الطفولة في شعر إبراهيم الكوفحي:

اشتملت التجربة الشعرية عند إبراهيم الكوفحي على عديد من الجوانب، والأبعاد الدينية والوطنية، والإنسانية والشخصية، وربما جاءَت معظم الاشتباكات مع الطفولة على المستوى الإنساني، وعلى المستوى الشخصي،

ذات دلالات موضوعية وفنية، تدعونا للوقوف عندها وتأملها، في سياق القصيدة التي وردت في ثناياها أولًا، ثم في سياق التجربة الشعرية الكلية لدى الشاعر ثانياً، وعلى هذا الأساس سنقسم تناولنا لهذا الموضوع إلى عنوانات فرعية، يمثل كل منها أحد تجليات الطفولة في شعر الشاعر إبراهيم الكوفحي.

-الطفولة النائية:

عندما كتبت المغربية ليلى أبو زيد سيرتها الذاتية لم تجد لها عنوانًا أكثر جذبًا من(الرجوع إلى الطفولة)[9]، ومما لاشكَّ فيه أن موضوع العودة إلى أو الرجوع إلى الطفولة هي إحدى ثيمات الأدب المهمة، وهي ذات دلالات نفسية وفلسفية، تعبّر عن رغبات كامنة لدى الفنان، شاعرًا أو روائيًا أو رسامًا وغير ذلك. وقد أوضح عبد المجيد بن جلمون في كتابه (في الطفولة)، الذي ألّفه عن سيرته الذاتية: أنْ تذكر الطفولة لشخص قد شارف على مغادرة الثمانين عاماً من عمره تحيل القارئ إلى مرجعات نفسية وفكرية لا بدَّ من أخذها بعين الاعتبار عند محاولة تشكيل لاحق لشخصية الإنسان (لمزيد من التفاصيل عن هذه السيرة)[10].

وبالانتقال إلى هذه الطفولة وتجلياتها عند إبراهيم الكوفحي، وفي إطار الطفولة النائية تحديدًا، تطالعنا قصيدة بعنوان أنا(إبراهيم!)، وهي ذات بنية فنية فريدة، بنية درامية، يجرد الشاعر من نفسه طفلاً، ينشئ الشاعر(إبراهيم الكبير) مع هذا الطفل(إبراهيم الصغير) حوارًا من طرف واحد، يقول[11]:

صادفته ...
يسير في شوارع (الزرقاء)
أذكره ...
كان صديقاً رائعًا ... وطيبًا،
من خير أصدقائي
وطالباً مجتهدًا... في المدرسة
مشتعل الذكاءِ
لم أره ...
من مدةٍ طويلة في (الأردن)

(9) أبو زيد، ليلى، 2007، الرجوع إلى الطفولة، المغرب، الدار البيضاء، شركة المدارس للنشر والتوزيع.

(10) الوراري، عبداللطيف،2023، من الخيال إلى الاكتشاف: تحولات محكي الطفولة في السيرة الذاتية، جريدة القدس العربي، (2023/12/29م).

(11) الكوفحي، إبراهيم، ص20.

عهدي به هناك في (واشنطنِ)
حدّثته
عن ذكرياتٍ حلوة جميلة
كانت لنا ...
في عالم الطفولة
عن ركضنا ...
هناك في الكروم والضّياعِ
وصيدنا للطير بالمقلاعِ
وأكلنا
حين نجوع في الأصيل
من (رغيف الراعي)
... عن لعبة (القناعِ)
وكيف كان دائمًا
يفوز دون غيره بلقب الشجاعِ

فهذه الصداقة، الطفولة النائية لاتزال تحيا في داخل الشاعر، فهي ذكريات حلوة جميلة، يتذكر تفاصيلها، حيث يسمّي الطفولة (عالم)، وكأنه عالم (فانتازي) يمارس فيه الأطفال شغفهم بالحياة، شقاوتهم، لامبالاتهم، عالم منسجم بكل ما فيه من مغامرات حتى إنه منسجم بإيقاعه، من خلال ما بثته القصيدة من نغمة موسيقية عكستها القافية (الضياعِ، المقلاعِ، رغيف الراعي، لعبة القناعِ، بلقب الشجاعِ).

تمثل القصيدة شغف العودة إلى الطفولة، ذلك (العالم) الذي نما في ذاكرة الشاعر كشجرة خالدة في الوجدان، ولاشكَّ أنَّ(عالم الطفولة)هذا، بصفته (الزمانية) الحيّة في نفس الشاعر لاينفك، ولا ينفصل عن تجليات (المكان) الذي يفتقده الشاعر، وكلما عاد إليه يثير في نفسه شريط الذكريات، ففي قصيدة (منبع الأحلام) يقول[12]:

هذي مرابعُ إربدٍ فاستمتـــــعِ بجمالها المتألق المتضـــــوّعِ
وانعمْ بأهليها، فإنّ وجوههم كالصبح إذْ يلقاك بهجةَ مطلَعِ

***

([12]) الكوفحي، إبراهيم، ص116-117.

هذه المرابع أمُّنا، كم أطعمتْ من جوّعٍ، أو كفكفت من أدمعِ

وسقت بنيها من حنان دافئٍ قد عتّقته.. ومن حديــث ممتـعِ

أنا طفلها.. مهما نأيت، تشدُّني أحضانها، ومتى أعيّطْ ترضعِ

أنا طفلها مهما كبرت تردّنــي أيامهــا لبراءَتــي وتسكّـــــــــعي

وهنا نحن أمام إحدى تجليات أنسنة المكان حيث تغدو إربد (أمًّا) أطعمت من جوع، وكفكفت الدمع، وسقت البنين، وأمتعت بالحديث، وشدّت إلى الأحضان وأرضعت، وردّت ... فإذا كان الجانب الأول من هذا ممثلًا بالأم، فإن الجانب الآخر بطبيعة الحال هو (الطفل)، ولقد أبدع الشاعر في شرح تفاصيل العلاقة بين الطفل وأمه، في محاولة لاسترجاع(عالم الطفولة) ذاك المرتبط (بإربد)، فالعودة إلى إربد هي عودة إلى الطفولة التي فاضت بها أحاسيس الشاعر، فانثالت كلماته بالحديث عن ذلك الطفل وجوعه، وحاجته للحنان والأحضان، وقد جاء تكرار (أنا طفلها) في البيتين الأخيرين لتأكيد الرغبة في الثبات، والبقاء عند هذه الحالة الإنسانية (الطفولة النائية) إنّ هذه الذكريات عن العلاقة بين إربد والطفل، بين الأم وابنها علاقة حية على مدى الأيام ومستمرة، فإذا كانت طفولة الشاعر مضت وانقضت، فإن الأم باقية خالدة خلودًا أسطوريًا، فإربد موجودة دائماً، ووجودها يجلب صورة هذا الطفل، ويعيده إلى الوجود باستمرار، ومثلها قصيدة (رؤى) وهو اسم ابنته، حيث يرتبط حضورها بتذكر الشاعر منطقة (أبان)، وهي من مرابع صِبا الشاعر في مدينة إربد فيقول[13]:

أحبك يا زهرة من(أبان) فكم لك من لمسة حانيـــــــــةْ

وكم لك من بسمةٍ حلوة تهشّ لها الروح ... كالعافيـــــــــة

لأنتِ إذا ما أفقتِ صباحا ندىً رشرشته السما الصافية

تعالَي، فإني أذوب اشتياقا فقد طال بعدك ... يا قاسيـــــة

تعالي لألثم منك الخدود وأقرص آذانك الحالـــــــــــية

ويرتبط بهذا النص قصيدة أخرى بعنوان (عيدنا في إربد) وفيها يتوجّه بالخطاب إلى نجله الأكبر(ليث) قائلًا[14]:

([13]) الكوفحي، إبراهيم، ص132-133

([14]) الكوفحي، إبراهيم، ص118.

غدًا ... بُنيّ، عيدنا في إربدِ ما أجملَ العيدَ بأرضِ المولدِ

فأهمّ ما في إربد أنها (أرض المولد) أرض البداية، الطفولة، والانطلاق، هذه البداية التي تستثير الشاعر تجاهها لتنثال ذكرياته فنراه يقول[15]:

يا طالما سرحتُ فيها لاهـــيًا أركضُ خلف جندبٍ أو قنفـدِ

أو نحو عصفورٍ أراه ساهيًا أنقفـــــه بحجـَرٍ أو وتـَـــدِ

إنْ جعتُ كان لي عشاءً طيبًا ما أطيب اللقمةَ من كسب اليدِ

هنا هنا يا (ليثُ) أحلى ملعبٍ قد كان لي يوماً وأشهى مرقـــدِ

إذ كنت طفلاً ناعمًا شرواك لا هـــمَّ ولا غـــمَّ خلـــيَّ الخلَـــدِ

طورًا أرى فراشـــــــــةً وتارة كالقرد من غصنٍ لغصن أملدِ

يلحظني أبي بعين حبّـــــــــه وعطفه على امتداد المشـــــهدِ

كم قال لي: مشاغب، شيّبتني العبْ هنا (إبراهيمُ) لا ... لا تبعدِ

أخاف أنْ تضيع أو تلسع أو تسقط في حفيرةٍ..يا ولـــــــــدي!

لا شك في أن هذا البوح الشعري قاد المتلقي إلى متابعة البيت تلو البيت بسبب النزعة السردية، التي منحت الأبيات ضرباً من التشويق، الذي دفع بالقارئ ليواصل المرور بأبيات القصيدة من بدايتها حتى نهايتها، وعلى المستوى الآخر من مستويات القراءَة النقدية تحمل بعض المفردات معاني يجب الوقوف عندها وتأملها، فالقصيدة ليست مجرد ذكريات تنثال من ذاكرة الشاعر، وهو يسردها على مسامع ولده (ليث) بل إنَّ الأبيات تمثل (نزوعًا رعويًا رومانتيكيًا) لكثرة ما تتأمله هي وغيرها من تفاصيل طبيعية، يتغنى بها الشاعر، ويحيا جمالها ويتأمله، وهذا يمثّل الثيمة التي "لا تخرج، في الغالب الأعم، عن الخشوع أمام الطبيعة والحنين إلى العهد الذهبي أو «الأركاديا»، ومدح الخلوة والعزلة"[16].

ويمكن القول: إن النزعة الرعوية تميل أيضًا لجعله (نصًا بيئيًا) بامتياز وفق المناهج النقدية والحديثة، فنظرة الشاعر إلى البيئة، بهذه القدر من الأنسنة والجمال تنسجم مع ما يراه علماء النفس والبيئة في أن علاقة

---

(15) السابق نفسه، ص119، 120.

(16) بو دويك، محمد،2020، الشعر الرعوي: المفهوم والخصائص، مجلة نزوى، مسقط، عُمان، عدد96، ص11.

الفنان بالبيئة علاقة انطباعية وتأثيرية، وانتقائية واجتماعية، تحوّل مواد العالم الخارجي، بفعل الوعي الشعري، إلى عالم موضوعي جمالي، انطلاقًا من العالم الذاتي للشاعر[17].

يدلنا على ذلك إدراك الشاعر لجماليات الطبيعة وتفاصيلها البريئة، التي كان يحبيها ذلك الطفل، فنحن أمام مجموعة من المشاهد التي تعرض لنا عالما من الطبيعة البكر بكل مكوناتها وعناصرها من الكائنات الحية: الجندب، والقنفد، والعصفور، والفراشة، والقرد، وكذلك أغصان الأشجار والحجارة والحفر، وغيرها، ولاشكَّ أنَّ هذه العناصر مجتمعة اكسبت النص خصائصه البيئية والجمالية بكل وضوح.

وثمّة أمر لا بدّ من الإشارة إليه ونحن نقرأ كلمة (مرقد) فبالرغم من أنها تعني في موضعها مكان النوم أو المهد، لكنها فيما تحمل من دلالة رمزية وظلال وإيحاءَات تحيلنا إلى معنى كامن في اللاوعي، ينسجم مع ما للكلمة من دلالة على (القبر) أو المكان الذي يموت فيه الإنسان، يرقد فيه رقدته الدنيوية الأخيرة، الذي لابدَّ أنْ يموت وينتهي يوما ما، وكأن الشاعر يمنيّ النفس بأنْ تكون إربد هي المثوى والمرقد الذي يرقد فيه بسلام حين ينتهي الأجل، وربما يدعم هذا التأويل تكرار التشبث بالمكان: (هنا ... هنا)، ولا يفوتنا أيضًا الإشارة إلى أنّ حديث الشاعر عن طفولته، وبساطة تلك الأيام، وعفوية الحياة فيها، هو الذي نحا بالقصيدة نحو بساطة الألفاظ والتراكيب والصور الفنية، مما يعكس روح الطفولة التي تحدث عنها الشاعر، فعلى سبيل المثال نصادف كلمات مثل: (يا طالما، انقفه، جعت، اللقمة، شرواك، لاهم ولاغم، مشاغب، شيبتني، تضيع ... إلخ)، فهي من عبارات الحديث اليومي، التي تنأى بلغة القصيدة عن التكلف والتصنع، الأمر الذي يبث فيها حيوية خاصة، وروحًا متفاعلة.

ولايفوتنا في صورة العلاقة بين الأب والابن (إبراهيم الطفل)، تلك الإشارة التناصية السريعة إلى سورة يوسف، وتحديدا في خوف سيدنا يعقوب (عليه السلام) في الآية الكريمة "أخاف أن يأكله الذئب"[18]، وتشابه مصير الابن مع مصير سيدنا يوسف (عليه السلام) (تسقط في حفيرة ياولدي) في النص السابق، وإسقاط يوسف في البئر "وألقُوه في غيابة الجب"[19].

ويبدو أنَّ استحضار صورة الأب عند إبراهيم هو أحد أنماط التشبث بحالة الطفولة التي يستذكرها وسواء كان هذا الاستحضار الشاعر نفسه (أبًا) أو (لأبيه) أي الجد، كما في قصيدة (عيدنا في إربد) حيث يقول[20]:

([17]) شناوة، علي، والحسيني،عامر،2001، التعبير البيئي في فن ما بعد الحداثة، العراق، بابل، دار الصادق الثقافية، ص16.

([18]) سورة يوسف، الآية 13.

([19]) السابق نفسه، الآية 10.

([20]) الكوفحي، إبراهيم، ص120.

هنا هنا يا ليثُ أحلى ملعبٍ قد كان لي يوماً وأشهى مرقدِ

يلحظني أبي بعين حبـــــــه وعطفه على امتداد المشـــــهد

كم قال لي: مشاغب شيبتني العب هنا (ابراهيم) لا لا تبعد

وينضوي تحت الاستحضار كذلك صورة (الأم) كما في قصيدة (وشوشات إربدية) حيث يقول عن مدينته إربد[21]:

إذا اشتعل الشوق في أضلعي أقبّلها أعيناً وشفـــــاها

وأحضنها مثـــــــــل أمّ رؤوم فينعش روحي دفق شذاها

ففعل الاحتضان يبرز لنا صورة طفولية من خلال هذا التعلق بالأم، ولأن الطفولة التي يحيا الشاعر ذكرياتها طفولة نائية وهي ليست براجعة، فإن ذلك لسبب كافٍ لأنْ يبكيها الشاعر،

كما في قصيدة (وقفة على الأطلال) حيث يقول[22]:

لست أبكي على (أبان)، ولكــن أنا أبكي عهد الصّبا في (أبانِ)

وعشايا .. كأنها بسماتُ الفجر في رقةٍ وعطر ثوانـــ

إنما العمر ساعةٌ من صفاءٍ وسرورٍ، تشتاقها كـــــــلّ آنِ

ليس من عمرك السنون تقضّت وتوارتْ في تربة النسيان

وهنا يبرز الفرق بين (الزمان) و(المكان) في المقياس الإنساني، والشاعر يدرك أنَّ المكان يمثل الثابت، لكن الزمان هو المتحرك والمتغيرّ ... لذا لا يبكي الشاعر على (أبان) إنما يبكيه (عهد الصّبا) الذي ولّى وانتهى، ومن هنا نفهم لم تبرز دائماً إشكالية العلاقة بين الزمان والمكان في الحديث عن الطفولة في الشعر العربي، ومن قصائده التي تربط حنينه إلى تلك الطفولة النائية بحنينه إلى المكان قصيدة (سلام على إربد)[23]:

سلام على إربدٍ كـــــمْ أحنّ إلى زهر أيامها الحلوةِ

([21]) السابق نفسه، ص 124.

([22]) السابق نفسه، 125.

([23]) الكوفحي، إبراهيم، ص309.

ذكرتُ ملاعب لي في الطوال وفي التركمان وفي زبدةِ

وفي سفح إيدون حتى الصريح ووادي أبانَ إلى الحمةِ

فالطوال وزبدة والتركمان وسفح إيدون من مناطق إربد وأحيائها، أما الصريح والحِمّة فبلدتان صغيرتان قريبتان من إربد ... .

وفي نص آخر يقول عن طفولته النائية في واحد من أودية إربد (وادي الغفر) الواقع غربي مدينة إربد، حيث الطبيعة الغنّاء، قبل أن يلوّثها الإنسان بزحفه العمراني[24]:

كم تسطّحت على خضرته وتمليت (حديث القمرِ)

وتنشّقت شـــــــذا أزهاره وترشّفت رحـــــيق الثمر

وتسلقت على أشـــــــجاره وتسحسلت من المنحدر

وشربت الشاي في أحضانه وتمتعت بلـــــيل السمر

قد حسدت النحل في أرجائه ينتشي من أصفرٍ أو أحمرِ

ونلاحظ دلالة التوظيف لـ (حديث القمر) لمصطفى صادق الرافعي، وهي الرسائل والخواطر المفعمة بحس العشق، وتجليات العاشق الرومانتيكي الذي يفني الروح بعشق الطبيعة ومدحها، والتوحد بها، ولا سيّما في عهد الطفولة.

- ما زلت طفلاً:

وبما أنَّ عهد الطفولة نأى وابتعد، ولمْ يعد سوى مجرد ذكريات فلابدَّ للشاعر من اللجوء إلى وسائل وأساليب أخرى تمثل تعويضاً حقيقياً، كأنْ يمارس مسالك الطفولة وأفعالها في الواقع، فهي قصيدة (بلغت الأربعين) يقول[25]:

أحس كأنني ما زلت طفلًا فكم من قائل لي: يا(شقيُّ)

فذا ليثٌ يصيح: تعال (بابا) لنلعب، أنت عِفريت ذكيّ

(24) السابق نفسه، ص430.

(25) الكوفحي، إبراهيم، ص137-138.

وكم ركبت رؤى ظهري حصانًا توجّهه كما شاء الحذيّ

وكم ضحكت رموزُ عليّ لما تخفّتْ إذ أنا الأعمى الغبيّ

أفرّح فيهم قلباً بريـــــــــئاً فيفرح للدنا قلبي البريُّ

سويعات إذا ما جفّ دهري تسيل كأنها النهر النقيُّ

بلغت الأربعينَ ولست أدري بلغتُ الرشد أم أني صبيُّ

تطيب حياتنا ما طاب قلبٌ ورقّ، كأنه الزهر الندىُّ

وهنا تمتزج المشاعر والأحاسيس بالأفعال على أرض الواقع، فمن (أحسّ) إلى (تعال بابا لنلعب)، و(ركبت رؤى ظهري حصانا)، و(ضحكت رموز عليّ) ... .

كل هذا المزج بين الأحاسيس وأفعال الممارسة الحقيقية من أجل أنْ (يفرح للدنا قلبي البريّ) بل من أجل دفع الجفاف الذي جلبته (الأربعون):

سويعات إذا ما جف دهري تسيل كأنها النهر النقيَّ

بلغت الأربعين ولست أدري بلغت الرشد أمْ أني صبيّ

ولاشكَّ أنَّ الصورة الفنية في تشبيه سويعات العبث واللعب مع الأطفال (بالنهر النقيّ) تحمل دلالة الرغبة في الاستمرار وعدم التوقف، لذا جاءَت الصورة من عالم اللاوعي تقدم لنا ما تحمله كلمة (تسيل)، وما تحمله دلالة(النهر) الجاري الذي لا يتوقف، ولعل (جفاف دهر الشاعر) هذا، وبلوغه الأربعين، وما يتبع ذلك من تعب قد لفتا نظر طفلته (رموز) حيث عبّر الشاعر عن هذا في قصيدته القصيرة (لن أستريح) قائلًا[26]:

تقول رموزٌ: يا أبي أنتَ متعبٌ فهلّا استرحتَ، والزمان كما ترى

فقلتُ لها: لن استريح بنيّتي سأبذل كل المستطاع، لأعذرا

ونقرأ في هذه الحوارية الموجزة انجذاب الأب لعالم الطفولة المتمثل بابنته (رموز)، مؤكدًا هذا بقوله عن نفسه[27]:

([26]) الكوفحي، إبراهيم، ص 262.

([27]) الكوفحي، إبراهيم، ص300.

إني امرؤٌ طفل الفؤاد، وإنه زمن كمثل الصخر ما يتصدّع

وكأني به يقدم جوابًا لسؤال ابنته (رموز) أو لحثّها له "هلّا استرحت!، فهو يدري بأن هذا الزمان كالصخر الذي لا يتصدع، وربما هو الصخر الذي تحمله فوق أكتافنا ونحن نواجه هذه الحياة بحلوها ومرها، زمان كصخرة (سيزيف) وعذاباته اللانهائيه، لكن الشاعر يقدم لطفلته درس الحياة الذي ينبغي أن تتعلمه: (سأبذل كل المستطاع لأعذرًا) وهو هنا يذكرنا بسلفِه الشاعر الجاهلي[28]:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنّا لاحقان بقيـــــــــصرا

فقلت له: لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

حيث نجد في هذا (التناص[29]) جانبين، أولهما جانب التناص الأسلوبي المتمثل بالحوار، فكلا الشاعرين داخلان في حالة حوارية، حوار مع صاحبه عند امرئ القيس، وحوار مع الابنة (رموز) عند إبراهيم الكوفحي، وثاني البعدين، وهو الأهم التناص في اللفظ والمعنى، ففي كلمة (نعذرا) و(لأعذرا) تتضح لنا علاقة الخلف بالسلف، أي علاقة النص الحاضر بالنص الغائب، لنستلهم عمق المعنى الذي رمى إليه إبراهيم، الذي يَعِد هذه (الرموز)، بأنه سيبذل كل المستطاع (ليعذرا).. ليقدم لها الحماية والحياة اللائقة الكريمة، لتغذو (ملكةً) في كنف والدها... كغاية امرئ القيس تمامًا، ومنه ندرك جماليات هذا التناص، وعمقه الموضوعي والفلسفي، الذي يعكس نظرة شاعرنا للحياة وإشكاليتها.

وفي سياق الحديث عن صورة (الفؤاد) الطفل: (إني امرؤ طفل الفؤاد)، وتكرار الصورة في نص آخر عن الحِمّة الأردنية، وعودة أخرى إلى المكان هنا، يقول[30]:

تعلّق قلبي الصبيّ بها فصرت أراها بأحلاميهْ

([28]) امرؤ القيس،1990، ديوان امرئ القيس، تحقيق: وائل مصطفى، سوريا، دار دمشق، ص19.

([29]) ورد تعريف التناص عند العديد من مثل جوليا كريستيفا في كتابها علم النص، الصادر عام 2014، ترجمة فريد الزاهي، ط3، عن دار توبقال للنشر، المغرب في الصفحة21؛ إذ تقول: "ويراد به علاقة النصّ باللغة التي تتموضع فيها هي علاقة إعادة توزيع (هدم, بناء)، والتّناص ترحال للنصّوص وتداخل نصّي، ففي نصّ معيّن تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصّوص أخرى، وبمعنى آخر إنّ كل نصّ هو عبارة عن لوحة فسيفسيائيّة من الاقتباس، وكل نصّ هو امتصاص وتحويل لنصّوص أخرى" .

([30]) الكوفحي، إبراهيم، ص427.

فطفل الفؤاد، وقلبي الصبي ... تحملان دلالة واضحة على ما يكنّه الشاعر (للطفولة والصّبا) من مشاعر عميقة ورفيعة، وكأن الطفولة ومعانيها الجميلة والجليلة تأبى إلا الارتباط بالعمق والروح (القلب والفؤاد)، فإذا كان الجسد والشكل الخارجي للإنسان يخضعان لسلطان(الزمن) وآثاره وتقلباته، فإن الطفولة هي الحصن المنيع الذي تتحصن بها الروح (القلب والفؤاد).

- فيافي العمر ... وبلاغة الغياب:

يدرك الشاعر كم هي عظيمة نعمة الحياة وسط أطفالك! فهم عالمك البريء والجميل، وهم الصوت الذي يملأ دنياك، ولكن غيابهم ... سفرهم ... رحيلهم ... وجع وعذاب، فهي تجربة مؤلمة، وكأن أطفالك الذين أحيوا طفولة قلبك بوجودهم معك، ينتزعونها بغيابهم عنك، وقد عبّر الشاعر عن هذه التجربة المؤلمة بقصيدة مؤثرة، بعنوان (وحدي مع الحزن) يقول فيها[31]:

رجعتُ للبيت، لا أهـــــــــل ولا ولدُ ... وحدي أعيش كميْـــتٍ ضمّه لحِدُ

وحدي مع الحزن أصلى غربةً طعنت ... روحي، ففي كل آنٍ يشتكي الجسد

غاب الأحبّة فالعينان في يبَـــــــــسٍ ... ومثلهم في فيافي العمر يفتـــــقد

ودّعـــتهم ... وعلى الخديــن أوديـــــــــةٌ ... حرّى، وفي الصدر نار الشوق تتقد

(مع السلامة..) عين الله تحفظـــكم ... (مع السلامة ...) لا خوف ولا كـــــبد

ما ذقت مرّ النوى حتى رأيتهـــــــم ... يلوّحون بأيديهم، وقد صعـــــدوا

وكل حرف على الأفواه.. يخطفـــــه ... هدير (طائرةٍ).. من خلفهم رصـــــد

كأن روحيَ شقّـــت ثوبها.. لحَـــــــقاً ... فالجسم مني جراحٌ،ما لـــها عدد

ظننت أني سأبقى إنْ نأوا.. جبـــــلاً ... وإذ أنا خيمةٌ تهوى.. بـــــــها العمُدُ

فتلك أشلاء روحـــــــي.. مَنْ يلملمها ... تودي بها البيد.. والظلماء.. والكمــد

.....

ما عدتُ ألقى فراخاً حين تلمحنى ... من آخر الدار طارت وهي تجـــــتهد

---

(31) السابق نفسه، ص 109-115.

ما عدتُ أسمع (بابا) وهي ملهمتي تفوح كالمسك إن قاموا وإن قعدوا

(بابا) إذا لعبوا (بابا) اذا درسوا (بابا).. إذا أمنوا (بابا).. إذا ارتعــدوا

إنـــــــي أحنُ إليهم كلّ ثانـــــــيةٍ وإنْ هُمُ في الحنايا الروح والكـــــــبد

لكم تعاتبني نفسي وتزعجـــــني بهمسها: كيف غابوا..؟حيــن تنفرد

ففي هذا المقطع من القصيدة، التي تطول عن ذلك.. نلمس حزنًا جارحًا وعميقًا في نفس الشاعر، وربما طغى حزن هذا الشاعر الحديث على حزن (المتنبي) الذي يتناص معه في قوله[32]:

بم التعلل لا أهل ولا وطـــــن ولا نديم ولا كأس ولا ســـــــــكن

أريد من زمني ذا أن يبلّغـــــنى ما ليس يبلغه في نفـــــسه الزمن

لا تلق دهرك إلا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدن

فما يدوم سرور ما سررت به ولا يرد عليك الفائـــــــــت الحزن

لأن إبراهيم الكوفحي رجع إلى البيت ...، وكأنه رجع (بخفيّ حنين) ليصل به حزنه إلى درجة (الموت) المستفادة من الصورة في تشبيه نفسه: (وحدي أعيش كميت ضمه لحد)، ولا شك أن رجوعه إلى البيت له أكثر من معنى، وكأني به قد ضاقت عليه الدنيا بما رحبت إلا البيت، وفي معنى آخر فإن رمزية الرجوع إلى البيت فيها نوع من الأنس ورائحة الطفولة التي غَيّبها السفر، ليعود هو إلى (غربته)، ولاشكَّ أن عبارة (أصلى غربة طعنت روحي) تحمل الدلالات العميقه فيما يحيلنا إلى المعنى القرآني لهذه اللفظه: (أصلى) من خلال الآية (اصلوها اليوم)[33]، والمقصود جهنم، فكأن هذه الغربة هي جهنم بكل قسوتها.

لقد فاض معجم الشاعر بالمفردات القاسية الجافة، وانثالت الصور الشعرية التي تنقلنا إلى أعماق المعنى بما يتجاوز المعنى اللغوي للعبارات والأبيات، ومنها:

وحدي أعيش كميت

غربة طعنت روحي

العينان في يبس

([32]) الواحدي، 1988، شرح ديوان المتنبي، ج2، بيروت، المكتبة الشاملة، ص44.

([33]) سورة يس، الآية 64.

فيافي العمر

على الخدين أودية

في الصدر نار الشوق

مُرّ النوى

كل حرف يخطفه هدير طائرة

روحي شقّت ثوبها

أنا خيمة تهوي

أشلاءُ روحي من يلملمها

إنَّ البناء التصويري والاستعاري لهذا المقطع هو الذي يتحدث، وينأى بالنص عن التقريرية الجافة، ليحدث نزوعاً درامياً يستثير الحركة السردية التي تمثل انطلاقة القصيدة.

ثم ينقلنا المقطع الثاني إلى مشهد استحضار أطفاله الذين غابوا ورحلوا، لترتفع وتيرة النزوع الدرامي في النص من خلال اختلاق أجواء حوارية، وذلك من عبر تكرار النداء (بابا) ومن خلال عتاب النفس وهمسها، ليردّ عليها بعجزه عن الإجابة: (ماذا أجيب)؟! وفي خضم هذا الغياب يستحضر صورة الزوجة (الملاك) كنوع من التسلية والتعزية، وهو هنا يحاول إعادة بناء صورة مكتملة (للأسرة) الأب والأم والأبناء، وهو من خلال هؤلاء الأطفال يستعيد طفولته هو[34]:

أشتاق (أنعام) كم طابت مجالسنا ... فيها يسامرنا طفل لنا وَغـــــــدُ

أرنو إليها ملاكاً جـــــــــــاء يحملني ... إلى الفراديسِ حيث الحبّ والأبد

اشتاق صورة (ليـــــثٍ) كم يذكّرني ... مرآه وجهي، ووجهي أخضر مَلِد

والكون حولي كحضن الأم يرضعني ... حباً وأمناً، فلا غولٌ ولا أســـــد

تالله ما رحت ساعـــــــــاتٍ ألاعبه ... إلا وقالت لي الأعوام: يا ولـــــد!

اشتاق صوت (رؤى) كم وشوشت ... أذني غرائباً وحكايا كلها فنـــدُ

(34) الكوفحي، إبراهيم، ص112-113.

بل يستعيد (حضن أمه) أيضًا، وصورتها وهي (ترضعه)، وهو هنا يزيد في عناصر صورة (الأسرة) التي رسمها في هذا المقطع، وهنا أيضًا تستمر مخيلة الشاعر بإبداع الصور المبتكرة (والكون حولي كحضن الأم) و(قالت لي الأعوام يا ولد) ففي الصورة الأولى يبتكر الشاعر عالمًا مفعمًا بالأمن والسلام من خلال رمزية الأم، وهذا يؤدي الى تأكيد مفهومه للأسرة، وضرورة أن تكون مصدر هذا الأمر وهذا السلام الذي يظلل حياتها، ويتابع الشاعر تجليات هذا المقطع[35]:

أشتاق روح (رموز) حين تقرصـــني وتدّعي أن لحمي راح ينجـــــردُ

كم خادعتني اذا ما قمتُ أمسكها كأنـــــــها نحـــلةٌ تدنو فتبتـــعد

تنطّ في فرحٍ قد فزتُ يا أبتـــــــي إذ ألف آهٍ وآهٍ رحـــتَ تـــــزدرد

أعدو وراها فينسيني لها ضحكٌ حلوٌ عبوس زمانٍ قلـــــــبُه صـلد

(إنعامُ) (ليثُ) (رؤى) من ذا يجاوبني منكم (رموزُ) مضوا فالبيت لا أحد

ولا بدَّ أنْ نلاحظ أن اللغة تعود إلى بساطتها وعفويتها بحضور الطفولة، مع لعبهم وشقاوتهم، فالمعجم الشعري يتخلى عن رسميته وينزل إلى مستوى هذه الطفولة ومستوى فهمها للغة: (بابا، لا غول، ولا أسد، وشوشت أذني، تحك عيني، يا ولد، حين تقرصني، تنط في فرح، حكني الرمد، ويلي من سلاطتها)، ولكن الشاعر حين لا يجد منهم جوابًا، ويعود الفراغ ويملأ عليه المكان، ويتأكد له الغياب، يفقد الأمن والراحة والسلام[36]:

كانوا النعيم لقلبي إذ يلاحقـــــني سوط العذاب فماذا بعدهم أجد

لم يبقَ غير لهيب البعد يجلدني لكن سأبقى (بلالاً) آهـــــتي أحد

قد يجمع الله ما بيني وبيـــــنهم فهو الرحيم الودود الواحد الصمد

عمّا قريب ربي عمان تجمعـــنا أحبةً فيغني قلـــــــبها الغرد

ولاشكَّ أنَّ رمزية (بلال) هنا هي رمزية العذاب التي يوظفها الشاعر لتعميق عذاباته، وبالرغم من كل هذا الوجع، ولهيب البعد الذي يجلب الشاعر، (في صورة شعرية) ملؤها القسوة، إلا أنَّ إيمان الشاعر، ونزعته

([35]) السابق نفسه، 114- 115.

([36]) الكوفحي، إبراهيم، ص115.

التفاؤلية تجلب له الراحة المفقودة، والأمل باللقاء، وفق ما يقدره الله، وأنَّ هذا اللقاء المنتظر في أرض الوطن، بعيداً عن ديار الغربة سينعكس دون شك على قلب عمان (فيغنّي قلبها الغرد).

هذا النص المطّول يثير لدى القارئ والناقد الكثير من الأسئلة والملاحظات حول القضايا الفنية التي يتضمنها، فبالرغم من الإشارات السريعة نحو بعض الملاحظات حول (التناص) مع بعض آيات القرآن الكريم، ومع المتنبي، ومع صورة (بلال بن رباح الحبشي) ومعاناته مع جلاده أمية بن خلف، وصورة الأطفال (الفراخ) التي تلتقي مع الحطيئة، ثم الكسعيّ... فضلًا عن تحولات اللغة التي نزلت إلى بساطتها وعفويتها في سياق لعب الوالد مع أطفاله وممارسته لطفولته النائية.

كما تمت الإشارة في مواضع عديدة إلى البناء الاستعاري والطاقة التصويرية التي أنتجتها القصيدة، وهو بناء موظف لتعميق المعاني اللغوية، التي ثبتها الشاعر في عدة محاور(لعب الأطفال) (العلاقة بالزوجة) (آلام الوحدة والبعد عن الأطفال) وغير ذلك.

ومع هذا يبقى أمامنا قضية فنية هامة جداً، وتتعلق بالنص كله، من البداية إلى النهاية، وهي قضية (الثنائيات)، وهي الطباقات والتضادات التي تسيطر على بنية النص، فقد اتضح أن المعنى الكلي للنص قائم على بنية ثنائية تتمثل بحياتين أو زمنين نقيضين (حياة الشاعر مع أطفاله) (وحياته دون أطفاله) وهذا ما أدى إلى بروز هذا التضاد وشيوعه في لغة القصيدة ومعجمها بصورة تعكس التضاد الذي بات يحياه الشاعر بعد وداع أطفاله، من ذلك شذرت قصيدته وحدي مع الحزن وفي ذلك يقول[37]:

أني سأبقى/ إن نأوا

جبل (صامد)/ خيمة تهوي

(بابا) إذا أمنوا/ (بابا) إذا ارتعدوا

كيف غابوا/ حين تنفرد

حيث السعادة/ لا هم ولا نكد

حباً وأمناً/ فلا غول ولا أسد

هل تكذّبني؟/ ومن تصدّق؟

([37]) الكوفحي، إبراهيم، ص110-115.

كأنها نحلة تدنو/ وتبتعد

ضحك حلو/ عبوسَ زمان

كانوا النعيم لقلبي/ يلاحقني سوط العذاب

كانوا/ بعدهم

لم يبقَ غير لهيب البعد/ سأبقى (بلالاً)..

فهذه الثنائيات لابدَّ أنْ يكون لها رمزيتها ودلالاتها في السياق الكلي للنص، وفي مضمر الخطاب الشمولي لموضوع القصيدة، وهمها الأساسي ...، وربما نختم الحديث عن الأبعاد والقضايا الفنية في هذا النص بملاحظة حول شيوع الاستفهام فيه، وهو خطاب يرمز إلى نوع من الحيرة والتساؤل الذي يعبر عن الضياع النفسي والحسي للشاعر وسط هذا الغياب للطفولة وأشواقها، سواءً أكان ناجمًا عن طفولة الشاعر النائية، التي تحدثت عنها الورقة بدءًا، أم كان ذلك نابعًا من أوجاع الشاعر نظير غياب أطفاله ونأيهم عنه، وكأنا به يطرح هذه الأسئلة والتساؤلات ولا يريد لها جواباً، كصنيع شاعرنا المتنبي، حين قال[38]:

قد سألنا ونحن أدرى بنجد أطويل طريقنا أم يطول؟

وكثير من السؤال اشتياق وكثـــــــــير من رده تعليل

فالأسئلة في القصيدة موضوع الدراسة ذات وظيفة فنية وموضوعية تقتضى منا الوقوف عندها وتأملها، ولعل أول هذه التساؤلات يحمل الكثير من معاني الندم ولوم النفس وإدانتها لموافقتها على بعد أطفاله عنه[39]:

ماذا دهاني ... ؟ لكي أرضى بعادهمُ عني، وأن أنجز الوعد الذي وُعدوا

فليذرف (الكُسَعيّ) اليوم أدمعه ويدمِ إصبَعه ... قد فاته الرشـــــــدُ

وهنا يرتبط السؤال بإجابة جاهزة عبر الإحالة إلى قصة (الكُسَعي) الذي أورد الميداني في مجمع الأمثال عن حكاية (قوسه) التي تعاهدها بالعناية والرعاية، ولكنه ظن أنها تقترب من الصيد ولا تصيده، فغضب وكسرها، ولكنه اكتشف بعد ذلك أن كل حيوان رمى بها خرّ فكسرها، وقال[40]:

([38]) الواحدي، ص44

([39]) الكوفحي، إبراهيم، ص111.

([40]) الميداني، مجمع الامثال، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، ج2، لبنان، بيروت، دار المعرفة، ص348.

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني إذن لقطعت خمسي

تبيّن لي سفاه الرأي مني لعمر أبيك حين كسرت قوسي

وقد آتخذ الفرزدق أيضًا هذا المثل في مطلع قصيدته، التي يعبر بها عن ندمه لفراق زوجته فقال[41]:

ندمت ندامة الكُسَعيّ لمـــا غَدَت مني مطلقةً نـــــوار

وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حين لجّ به الضّرار

فالشاعر الكوفحي يفيد من كل هذه المعاني الذي (يتناص) معها في بيان شدة الندم على قراره الذي أودى به إلى كل هذه الأوجاع والآلام، وكأنه مع أطفاله في (جنة) فاختار مغادرتها والخروج منها.

ولمزيد من التأمل في استفهامات الشاعر وتساؤلاته تمرّ بنا الأبيات الآتية[42]:

لكم تعاتبي نفسي ... وتزعجني بهمسها (كيف غابوا) حين تنفرد

الآن (ما ندمي)؟! ما عاد لي أبدًا إلا التجلد والتذكار ملتـــــــــــحد

وثمة سياقات أخرى للاستفهام، يوظفها الشاعر ضمن حديثه عن زوجته، شريكة عمره، وضمن حديثه عن (رؤى) وغير ذلك، لكن الذي يتضح من هذه الاستفهامات في عمومها أنها تعكس هذا (التوهان) الذي عاشه الشاعر نتيجة غياب أطفاله، ويلاحظ أنَّ (جملة الإنشاء بما فيها من نهي واستفهام وتمن وغير ذلك، فالنهي (بنية توتر)، والاستفهام بصفته اختياراً لغويًا (حركة) تقع في مركز هذه البنية وبؤرتها، لذا فهو رؤية وحالة جدلية وسيرورة حوارية)[43].

يجد فيها الشاعر عزاءً وخروجًا من حالة (لا أهل ولا ولد)، وهي تحمل قيمة دلالية مضافة، وتصفه الدراسات البلاغية الحديثة بأنه (أي الاستفهام): "بنيته عميقة منتجة للدلالة"[44].

([41]) الفرزدق،1987، ديوان الفرزدق، ط1، شرح وتعليق: علي فاعور، لبنان _ بيروت، دار الكتب العلمية، ص257.

([42]) الكوفحي، إبراهيم، ص112 .

([43]) عباس، عبد الحليم عباس، 2016، شعرية النّص عند يوسف العظم، القصيدة بين الفن والالتزام، ط1، الأردن، عمان، منشورات وزارة الثقافة، ص147.

([44]) عبد المطلب، محمد، 1997، البلاغة العربية: قراءة أخرى، بيروت، مكتبة لبنان، ص 291.

ويرى موريس بلانشو بأن السؤال "يفتح الجملة على آفاق جديدة بحيث تغدو الجملة بذلك الانفتاح فاقدة لمركزها الذاتي"[45] وتروح تبحث عن تجليات فكرية أخرى، يجب على النقد مقاربتها والبحث عن آفاقها.

- الخاتمة

نستطيع القول في ختام هذه الدراسة أنَّ الشاعر إبراهيم الكوفحي قد أولى ثيمة (الطفولة) في شعره اهتمامًا بيّنا، ولا شك أنه تمكن بأدواته الفنية، وخبرته الشعرية الطويلة، أن يقدم لنا موضوعا مؤثرا بوجداننا وذائقتنا الفنية، ويمكننا القول: إن تجربته الشعرية هذه التي تناول بها تجليات الطفولة في شعره، سواء أكان ذلك من خلال نماذج نصية عن طفولة الشاعر نفسه(الطفولة النائية) أم عن الطفولة المحيطة به، من خلال ما نسميه (بلاغة الغياب)، إذْ يكمننا القول: إنه اتخذ نهجه الخاص، فكان مبتكرا لمعانية وصوره ومعجمه الشعري، وتكنيكه الفني بوجه عام، فبدا بهذا الاتجاه نسيج وحده.

وقد ألمحت الدراسة كيف ارتبطت الطفولة عند الشاعر الكوفحي بنزوع رعوي رومانتيكي، من خلال ارتباط الطفولة ومرابع الصبا بالطبيعة وتجلياتها، بل إنَّ شعر الطفولة وذكرياتها عنده مال- ولو قليلًا - نحو ما يكمن أن ندعوه (الشعر البيئي) حيث كانت نصوصه في هذا السياق تحاور البيئة وتتدغم معها، بما فيها من جماد ونبات وحيوان، لتغدو هذه العناصر جزءًا من مركزية النص وتجلياته الموضوعية والفنية.

المصادر والمراجع

المصادر:

القرآن الكريم.

امرؤ القيس، 1990، **ديوان امرئ القيس**، تحقيق: وائل مصطفى، سوريا، دار دمشق.

الفرزدق، 1987، **ديوان الفرزدق**، ط1، شرح وتعليق: علي فاعور، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية.

الكوفحي، إبراهيم، 2019، **الأعمال الشعرية**، ط1،الأردن، عمّان، دار الإسراء للنشر والتوزيع.

الميداني، **مجمع الامثال**، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، ج2، لبنان، بيروت، دار المعرفة.

الواحدي، 1988، **شرح ديوان المتنبي**، ج2، بيروت، المكتبة الشاملة.

المراجع:

أبو زيد، ليلى، 2007، **الرجوع إلى الطفولة**، المغرب، الدار البيضاء، شركة المدارس للنشر والتوزيع.

الرواشدة، سامح، 2011، **الشعر وذاكرة الطفولة: دراسة في شعر محمد لافي**، الأردن، إربد، دار الكتاب الثقافي.

([45]) بلانشو، موريس، السؤال والجواب، ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي.

شناوة، علي، والحسيني، عامر،2001، **التعبير البيئي في فن ما بعد الحداثة**، العراق، بابل، دار الصادق الثقافية.

عباس، عبد الحليم عباس،2016، **شعرية النّص عند يوسف العظم**، القصيدة بين الفن والالتزام، ط1، الأردن، عمان، منشورات وزارة الثقافة.

عبد المطلب، محمد، 1997، **البلاغة العربية: قراءة أخرى**، بيروت، مكتبة لبنان.

المجلات والدوريات:

بو دويك، محمد،2020، **الشعر الرعوي: المفهوم والخصائص**، مجلة نزوى، مسقط، عُمان، عدد96.

رشيد، محمد صالح، 2011، **الطفل والطفولة في شعر السياب**، مجلة أبحاث كلية التربية، ج الموصل، مج11، ع1.

القحطاني، حمد فهد،2012، **صورة الطفل الفنية في الشعر السعودي المعاصر**، حوليات آداب عين شمس، مج40.

مواقع الإنترنت:

بلانشو، موريس، **السؤال والجواب**، ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي، موقع الكتروني:

www.gocities.com

شمس الدين ، محمد علي، **صورة الطفولة المغدورة في الشعر المعاصر، 2023**، منشور في موقع صوت الفرح، 2023/11/26م.

https://www.sawtalfarah.com/?p=275462

عرابي، محمد عباس،2023،**الطفولة في ديوان (مراكب ذكرياتي) للشاعر عبد الرحمن صالح العشماوي**، وهو مقال منشور على موقع الألوكة، 2023/5/28م.

https://www.alukah.net/literature_language/0/162657. /

مكاوي، طارق، **الشعر وذاكرة الطفولة: دراسة في قصيدة محمد لافي** ، جريدة الرأي الأردنية، 2011/2/12م.

https://alrai.com/article/444344

الوراري، عبداللطيف، 2023، **من الخيال إلى الاكتشاف: تحولات محكي الطفولة في السيرة الذاتية**، جريدة القدس العربي، 2023/12/29م).

https://www.alquds.co.uk/%D9 /

المراجع العربية بحروف لاتينية

al-Maṣādir:

al-Qur’ān al-Karīm.

Imru’ al-Qays, 1990, Dīwān Imri’ al-Qays, taḥqīq: Wā’il Muṣṭafá, Sūriyā, Dār Dimashq.

al-Farazdaq, 1987, Dīwān al-Farazdaq, Ṭ1, sharḥ wa-ta‘līq: ‘Alī Fā‘ūr, Lubnān _ Bayrūt, Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah.

al-Kūfaḥī, Ibrāhīm, 2019, al-A‘māl al-shi‘rīyah, Ṭ1, al-Urdun _ ‘Ammān, Dār al-Isrā’ lil-Nashr wa-al-Tawzī‘.

al-Maydānī, Majmaʿ al-amthāl, taḥqīq: Muḥammad Muḥyī al-Dīn ʿAbd-al-Ḥamīd, j2, Lubnān, Bayrūt, Dār al-Maʿrifah.

al-Wāḥidī, 1988, sharḥ Dīwān al-Mutanabbī, j2, Bayrūt, al-Maktabah al-shāmilah.

al-Marājiʿ:

Abū Zayd, Laylá, 2007, al-Rujūʿ ilá al-ṭufūlah, al-Maghrib, al-Dār al-Bayḍāʾ, Sharikat al-Madāris lil-Nashr wa-al-Tawzīʿ.

al-Rawāshidah, Sāmiḥ, 2011, al-shiʿr wa-dhākirah al-ṭufūlah _ dirāsah fī shiʿr Muḥammad Lāfī, al-Urdun _ Irbid, Dār al-Kitāb al-Thaqāfī.

Shanāwah, ʿAlī, wa-al-Ḥusaynī, ʿĀmir, 2001, al-taʿbīr al-bīʾī fī Fann mā baʿda al-ḥadāthah, al-ʿIrāq, Bābil, Dār al-Ṣādiq al-Thaqāfīyah.

ʿAbbās, ʿAbd al-Ḥalīm ʿAbbās, 2016, shiʿrīyah alnnṣ ʿinda Yūsuf al-ʿAẓm, al-qaṣīdah bayna al-fann wa-al-iltizām, Ṭ1, al-Urdun, ʿAmmān, Manshūrāt Wizārat al-Thaqāfah.

ʿAbd al-Muṭṭalib, Muḥammad, 1997, al-balāghah al-ʿArabīyah: qirāʾah ukhrá, Bayrūt, Maktabat Lubnān.

al-Majallāt wa-al-dawrīyāt:

Bū Duwayk, Muḥammad, 2020, al-shiʿr al-raʿawī: al-mafhūm wa-al-khaṣāʾiṣ, Majallat Nizwá, msqṭ-ʿumān, ʿdd96.

Rashīd, Muḥammad Ṣāliḥ, 2011, al-ṭifl wa-al-ṭufūlah fī shiʿr al-Sayyāb, Majallat Abḥāth Kullīyat al-Tarbiyah, J al-Mawṣil, mj11, ʿ1.

al-Qaḥṭānī, Ḥamad Fahd, 2012, Ṣūrat al-ṭifl al-fannīyah fī al-shiʿr al-Saʿūdī al-muʿāṣir, Ḥawlīyāt ādāb ʿAyn Shams, mj40.

Mawāqiʿ al-intirnit:

Blānshw, Mūrīs, al-suʾāl wa-al-jawāb, tarjamat: ʿAbd al-Salām ibn ʿAbd al-ʿĀlī, Mawqiʿ alktrwny: www.gocities.com.

Shams al-Dīn, Muḥammad ʿAlī, Ṣūrat al-ṭufūlah al-maghdūrah fī al-shiʿr al-muʿāṣir, 2023, manshūr fī Mawqiʿ Ṣawt al-faraḥ, 26/11/2023, https://www.sawtalfarah.com/?p=275462.

ʿUrābī, Muḥammad ʿAbbās, 2023, al-ṭufūlah fī Dīwān (Marākib Dhikrayātī) lil-shāʿir ʿAbd al-Raḥmān Ṣāliḥ al-ʿAshmāwī, wa-huwa maqāl manshūr ʿalá Mawqiʿ al-Alūkah, 28/5/2023, https://www.alukah.net/literature_language/0/162657/.

Makkāwī, Ṭāriq, al-shiʿr wa-dhākirah al-ṭufūlah: dirāsah fī qaṣīdat Muḥammad Lāfī, Jarīdat al-raʾy al-Urdunīyah, 12/2 / 2011, https://alrai.com/article/444344

Alwrāry, Latif, 2023, min al-Khayyāl ilá al-iktishāf: Taḥawwulāt maḥkī al-ṭufūlah fī al-sīrah al-dhātīyah, Jarīdat al-Quds al-ʿArabī, 29/12/2023) https://www.alquds.co.uk/%D9/

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، م (٣٣)، ع (5)، ص ص: 446 – 473، (٢٠٢٥م)
DOI: 10.64064/1658-4295.1070

The manifestations of childhood and the rhetoric of absence In Ibrahim Al-Kufhi's poetry

Abbas Abdul Halim Abbas[1]

Asem Mohammed Thalji Al-Hunaiti[2]

[1] Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Arab Open University, Amman

[2] Full-time lecturer،Department of Basic Science ،Ajloun University College ،Al-Balqa Applied University ،Jordan

drabbas0799@gmail.com[1]
asem_thalji@yahoo.com[2]

Abstract: This study seeks to investigate the poet's self and his return to childhood, that age stage, which…

The poet considers it a beautiful time, or a pleasant mischief, but rather a deep philosophical view, and a reaction to what he has reached.

Man is in advanced stages of age, he has become excessive in feelings of seriousness, bearing responsibility, giving, and annihilation.

The self in the other - or others; parents and family, work and society, so that the return to that childhood became It's kind of like a defense mechanism against all of this.

This study will follow the descriptive and analytical approaches in addressing the subject in terms of extrapolating the material from its sources.

And monitoring it, the research deals with its material through these axes: manifestations of childhood, and the eloquence of absence.

Keywords: Childhood manifestations, Absence, eloquence of absence, Ibrahim Al-Kofhi, Defensive mechanism.